ضراعات المؤمنين في المطالب الأخروية في القرآن الكريم

(دراسة بلاغية)

Supplications of the Believers for the Matters of Hereafter in the Holy Quran

د- عبد المجيب[1] زين العابدين [2]

Abstract

Supplications of the Believers for the purposes of Hereafter mentioned in the Holly Quran are some of those texts rich in rhetorical meanings as the supplications are composed of beautiful expressions selected by Almighty Allah Himself. Each word of it has certain meanings which show that such words are very judiciously chosen as it shows how should a conversation be held by a Believer with his Creator, the Merciful. Offering differing prayers and performing other obligations a believer is always prone to many mistakes, which if he commits faces the anger of Allah and in such a situation, there is dire need to implore forgiveness from Him and this again inevitably needs wise selection of words and expressions which must reflect confession of sins, determination to stay away from such actions, and weakness of the believer and glory of the Creator, Almighty Allah, with urgency, repetition and subservience. This article deals rhetorically with such a supplications and whisperings of the Believers mentioned in the Quran. The results are given at the end

Keywords: *Hereafter, confession, whisperings.*

التعريف بالموضوع، وأهدافه:

لقد تعددت الأدعية القرآنية المتناثرة عبر آي الكتاب العزيز، فمنها ما ورد على ألسنة الأنبياء، ومنها ما ورد على ألسنة المؤمنين، كما أن منها ما ورد على ألسنة الكافرين، يضاف إلى ذلك أن الأدعية الواردة على ألسنة المؤمنين إما تتعلق بالمطالب الدنيوية، وإما تتعلق بالمطالب الأخروية، وهذا الأخير هو موضوع هذا المقال؛ فإنه يحاول أن يلقي الأضواء الكاشفة على هذا النوع من ضراعات المؤمنين ليقف على الأسرار التعبيرية المتنوعة، والنكات الجمالية في أساليبها المتعددة، وذلك محاولة للوصول إلى الإعجاز البياني الذي تزينت به الضراعات القرآنية، وليعرف القارئ مدى الدقة البيانية في التعبير القرآني الذي عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله، وليتعرف إلى نقاط القوة التعبيرية في الأسلوب القرآني الفذ.

[1] أستاذ مساعد، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

[2] محاضر بقسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد، باكستان.

مقدمة:

إن الآخرة والفوز برضا ربنا فيها هو الأساس في حياة المؤمنين، فمن أجلها في الدنيا يعملون ويكدحون، ومن أجل نيل جنانها يضحون بكل ما يملكون من الغالي والنفيس، و في سبيل الله I ينفقون خير ما يجدون؛ ليجدوا أثره في الآخرة حيث يحاسب الإنسان على كل ما يعمله في الدنيا، ولأن الآخرة وأمرها وتقرير مصائر الناس فيها إلى الله I وحده، فلا يملك الإنسان من أمرها شيئا، فأمر مصيره بيد الله I يجازيه على أعماله التي عملها في الدنيا وقدّمها للآخرة، ولكن النتيجة الحتمية الأخيرة مردها إلى حكم الله I وحده، فبرحمته فقط ينال المؤمنون سعادة الآخرة، وبدونها تبقى المسألة جد خطيرة في تقرير مصيرهم خاصة إذا أقيم الأمر على الأعمال التي يقدمها المؤمنون إلى الآخرة فهي مهما كانت على أعلى مستوى من الجودة فإنها لا تخلو من كثير من الشوائب التي تقضي على أجزاء من الإخلاص فيها، ولذلك فالمؤمنون على هذا الأساس يواجهون خطرا عظيما، ويجابهون أمرا شديد الخطورة لأن المصير المحتوم وتقرير الحكم فيه منوط برضا الرحمن I، ورحمته التي وسعت كل شيء، ولذا أكّد الإسلام على ضرورة الضراعة والتوجه بها إلى الله I، وشجّع على التضرع المستمر الذي لا يعرف إلى الانقطاع سبيلا، وعلى التذلل المتواصل الذي يُثبت المؤمن من خلاله عبوديته لله I، واستسلامه الحقيقي السرمدي لخالقه I، فهو إن كان يرجو أن يجد نتيجة أعماله الصالحة في الآخرة ليفوز برضا الرحمن الرحيم، وجناته التي أعدّها للمؤمنين من ناحية، فهو في الوقت ذاته لا ينفك عن الخشية على أن تضيع تلك الأعمال سدى لأسباب مختلفة، وأنها قد لا تجد إلى القبول عند الله طريقا، يضاف إلى ذلك خوفه الشديد من أعماله السيئة التي يقوم بها في الدنيا، وسيجدها في الكتاب –الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها– ماثلة بين يديه، وكاملة غير منقوصة، ولذا فهو في أمسّ الحاجة إلى وسيلة يتقدم بها، ويُتبعها الأعمالَ التي قدّمها للآخرة لتكون مقبولة عند الله I، ومن رحمة الله I على عباده المؤمنين أنه نفسه I علّم المؤمنين هذه الوسيلة نفسها، وهداهم إليها، وأرشدهم إلى مرافدها، وهي وسيلة الضراعة، والتضرع، والإلحاح، والإصرار على الله I، يقول I: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [(1)]، ومن الواضح أن الله I يعتبر الضراعة، والتضرع إليه، والإصرار عليه عبادة بعينها، وسيَدخلُ المستعلون على هذه العبادة السهلة القريبة المتناول –التي استهان بأمرها كثير من المؤمنين – نارَ جهنم أذلاء منكسرين، والتي يقول المولى I في الحرص عليها، والتشويق إليها: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [(2)]، ولما وجد العقلاء من المؤمنين أن الأمر جد مهم، وأن القضية قضية مصيرية لا تحتمل التهاون فيها، فأخذوها بعين الجد والاعتبار، وتعاملوا معها تعاملا يتفق وخطورة الموقف الذي هم عليه مقبلون، وخلّد القرآن الكريم بين صفحات كتابه العزيز أمثلة متعددة لتلك الضراعات والضراعات التي تقدم بها أصحابها المؤمنون إلى الله I، وهم يرجون رحمة ربهم، ويخافون نار عذابه التي أعدّها لمستحقيها، وهي تحمل في طياتها عددا من المطالب الأخروية السامية، وتناثرت في سور القرآن الكريم في مواقع متعددة، ومواقف مختلفة، ومن أهم هذه

المطالب التي سعى المؤمنون عبر ضراعاتهم نحو تحقيقها: طلب الرحمة أو الاسترحام، وطلب المغفرة وتكفير الذنوب والسيئات، وطلب النجاة من الخزي أمام الخلائق وعلى رؤوس الأشهاد في الآخرة، وطلب الوقاية من النار، والنجاة منها، وطلب الفوز بالجنة وما أعدّ الله للمؤمنين من النعيم المقيم فيها، وطلب إتمام النور الذي ينير لهم الطريق الموصول إلى مولاهم الكريم، وخالقهم الرحيم I، وطلب الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين. وقد وردت هذه المطالب تارة مجتمة مع بعض، وتارة مستقلة، وتارة متداخلة، فقد تنوعت صورها، واختلفت أساليبها وتراكيبها التي وردت فيها من الناحية الشكلية.

الدراسة والتحليل:

ومن أهم ما ورد على لسان المؤمنين في طلب الرحمة والمغفرة قوله I حكاية (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [3]، وفي هذه الآية يَذكر الله I مجموعة من الخصال الحميدة، والصفات الطيبة للمؤمنين حيث إنهم لا يفترّون عن الاستغفار، وطلب تكفير الذنوب، إضافة إلى طلبهم الوقاية من عذاب جهنم، فهم في الحقيقة جمعوا في هذه الضراعة مطلبين مهمين، وهي: مغفرة الذنوب، والوقاية من عذاب نار جهنم. ومن أمثلة طلب الغفران، وتكفير الذنوب قوله I حكاية عن الربيين: (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [4] وهنا جمع الرِّبّيون بين طلب المغفرة، وتثبيت الأقدام في أرض المعارك، وميادين النزال، والنصر على الأعداء من القوم الكافرين. ومما ورد في طلب الرحمة، وهو أيضا من المطالب الأخروية المهمة قوله I حكاية عن فتية الكهف: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) [5] فهم طلبوا من مولاهم الرحيم I أن يشملهم برحمته، وأن يهيئ لهم الرشد والصلاح في أمرهم. ومن أمثلته قوله I حكاية عن المؤمنين الراسخين: (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) [6] الذين جمعوا بين المطلبين معا، مطلب الهداية والثبات عليها، ومطلب الرحمة الإلهية التي تبقى الأمور بغير شمولها ناقصة. ومن ذلك أيضا قوله I: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [7] وفيه يأمر الله I عباده المؤمنين بطاعة الوالدين، والضراعة لهما بالرحمة مقابل تربيتهما إياه وهو صغير، وفيه إشارة إلى أنه يجب أن لا يقابل الإحسان إلا بالإحسان.

ومما ورد على لسان المؤمنين من طلب الوقاية من النار قوله I: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [8]، والآية نص في أن بعضا من المؤمنين العقلاء يدعون بدعاء جامع يجمع بين خيري الدنيا والآخرة، فهم في هذه الضراعة يطلبون من الله I أن يمنحهم الحسنة في الدنيا والآخرة، وقد اختلفت أقوال المفسرين في المراد بهذه الحسنة، وأن يقيهم من عذاب النار، ويُجنبهم جهنم وسعيرها في الآخرة. ومن أمثلة هذا النوع قوله I أيضا: (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [9]، ومنه

أيضا قوله I حكاية عن بعض ما يدعو به أولو الألباب: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [10] فهم يتصفون بصفة الذكر المستمر على لسانهم في أحوالهم المختلفة من القيام والقعود، والرقود، كما يتصفون بصفة التفكر في مخلوقات الله I العظيمة العملاقة كالسموات والأرض، مقررين أن خلقها لم يكن باطلا، وعندها يستشعرون عظمة الله I في قلوبهم، ويسبّحونه بحمده متضرعين إليه I أن يقيهم عذاب النار، وما أعدّ فيها لمستحقيها من ألوان التعذيب المختلفة.

ومما ورد في القرآن الكريم من طلب الجنة والفوز بها على لسان المؤمنين قول الله I: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [11]، وقد ذكر المفسرون أن الحسنة في الآخرة هي الجنة، وقد طلب موسى υ ذلك من ربه في قوله I : (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ) [12] أي: في الآخرة حسنة وهي الجنة. وطلبتْها امرأة فرعون من ربها I: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) [13]، والحصول على البيت في الجنة هو الدخول فيها، والفوز بها. ومن رحمة الله I أن وكّل ملائكته بالضراعة للمؤمنين فقد جرى على لسان الملائكة من حملة العرش دعاء يطلبون فيه الجنة، ومنحها لأهل الإيمان، وذلك في قوله I: (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) [14]، فهم يتضرعون إلى الله I أن يشمل المؤمنين برحمته فيمنحهم الجنة التي وعدهم إياها، وأن يُدخل معهم إليها أهاليهم من الآباء، والأزواج والذرية.

ومن المطالب الأخروية السامية عند المؤمنين في أدعيتهم وضراعاتهم التي رفعوها إلى الله I هو طلب الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين في الآخرة، ومن ذلك قول الله I (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) [15]، وهو دعاء أولي الألباب من المؤمنين الذين يبتهلون إلى الله I طالبين إليه مطالب مهمة، منها: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وأخيرا طلب الوفاة مع الأبرار على التوحيد. ومن هذا القبيل أيضا ما جرى على لسان أهل الإيمان من سحرة فرعون في قوله I: (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) [16] فهم بعد أن آمنوا بالله I وكفروا بفرعون وملته تضرعوا إلى اللهI يطلبون منه الصبر حتى يثبتوا على الإيمان، وأن يتوفاهم الله I في نهاية المطاف على الإسلام مسلمين منقادين لله I. وقد عُبّر عن هذا المطلب أحيانا في القرآن الكريم بالكتابة مع الشاهدين، وذلك في مثل قوله I حكاية عن حواريّي عيسى υ: (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [17] أي في زمرة المسلمين، ومنه أيضا قول رهبان النصارى المتأثرين بالإسلام في قوله I: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [18]، ولأهمية هذا المطلب دعا به الأنبياء والرسل –عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم– مثل دعوة يوسف υ: (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [19]، وبمثله دعا إبراهيم خليل الله υ في قوله I: (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [20].

ومن المطالب الأخروية المهمة في ضراعات هو مطلب النجاة من الخزي يوم القيامة، ومن ذلك مثلا قول المؤمنين من أولي الألباب: (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [21]. ومن الخزي أن يكون نصيب المرء في الآخرة أن يكون محشورا مع أهل النار من المعذبين، وهذا هو ما استجار منه أصحاب الأعراف، فهم بعدما ينظرون إلى أصحاب الجنة ويتمنون أن يكونوا منهم يلتفتون إلى أصحاب النار فيستعيذون بالله I منهم، وذلك في قوله I حكاية عنهم: (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [22]، فهم إلى لحظة هذه الضراعة غير عارفين لمصيرهم الأخير، إلا أنهم يستجيرون بالله I أن لا يجعلهم مع الظالمين في النار، فيكونوا من أهل الخزي والعار، فلا يقر لهم قرار، ولا يطيب لهم حال، ولا يطمئن لهم بال. ومناسبة (الظالمين) للقوم واضحة، وهي مناسبة تتطابق وهذا الموقف الذي وقع فيه الظالمون من العذاب والنار، فكأن بها إشارة إلى علة الحكم الذي تمّ عليهم.

وإتمام النور هو المطلب الآخَر من المطالب الأخروية التي أصرّ المؤمنون في الحصول عليه، ومن ذلك ما ورد في قوله I حكاية عمن كانوا في صحبة النبي ρ: (يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا) [23]، فهؤلاء المؤمنون يطلبون من ربهم يوم القيامة أن يتم عليهم نورهم الذي يهتدون به أثناء سيرهم على الصراط. والله I قد أخبر في موضع آخر من القرآن الكريم أن مراد المؤمنين سيتحقق يوم القيامة، وذلك في قوله I: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) [24]، وفي تفسير النور والمراد به ذكر ابن كثير –رحمه الله– رواية تقول: " ليس لأحد إلا يعطى نورًا يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين، فقالوا: ربنا! أتمم لنا نورنا..."[25]. وهكذا فقد تنوعت مطالب المؤمنين الأخروية التي يسعون لتحقيقها بضراعاتهم التي يرفعونها إلى الله I مبتهلين، خاشعين طالبين منه I أن يحقق لهم ما يريدون، وأن يمنحهم ما يبتغون.

ومن الأمثلة الجامعة لضراعات المؤمنين في المطالب الأخروية هو ما ورد على لسان أولي الألباب في آخر سورة آل عمران، وهي ضراعات تشتمل على معظم المطالب الأخروية المذكورة آنفا، وفيها يخبرنا الله I عنهم وعن بعض خصالهم.

وبالعودة السريعة إلى بداية هذه السورة الكريمة يجد القارئ أن الله I نوّه بهؤلاء المؤمنين الموسومين بأولي الألباب، وبأنهم أهل التذكر والتعقل، وأنهم أهل التضرع، والابتهال، وأهل خشية يخافون في كل لحظة من لحظات حياتهم على الإيمان، وتزلزله في قلوبهم فيسألون الله مولاهم I أن يُثبّت قلوبهم على الإيمان، وأن يهبهم الرحمة من عنده[26] . ثم من خلال التمعن في الآيات الأخيرة من السورة نفسها [27] يجد القارئ مرة أخرى أنها تنوه بهؤلاء العقلاء من المؤمنين ثانية، إلا أن هذا التنويه أشمل وأعم من الأول، فالسورة قد ابتدأت بذكر ضراعات هؤلاء الصالحين من المؤمنين، وانتهت أيضا بذكر مجموعة من ضراعاتهم التي رفعوها إلى الله I وهكذا كانت نهاية السورة مرتبطة ببدايتها، وذلك من أساليب القرآن الكريم المفضلة في ربط السور والآيات الواردة فيها حتى لتبدو السورة الواحدة بتراكيبها المتنوعة، وأساليبها المتعددة، وموضوعاتها المختلفة منظومة موحدة في سلك واحد يربط بين كل

تلك الأجزاء المتفاوتة فيما بينها. فإذا كان هؤلاء قد دعوا ربهم الكريم I في بداية السورة طالبين منه الثبات على الهداية، وأن يمنحهم ربهم رحمة من عنده؛ فإن نهاية السورة تنوّه بهم في سياق دعائي ، يسبقه الحديث عن ذكر بعض صفاتهم، ويعقبه الحديث عما أعدّ الله لهم من الثواب العميم، والجزاء الجميل، وذلك بعد حديث طويل عن المعاندين من أهل الكتاب، والمنافقين، ومواقفهم من المؤمنين، " ويَبرز من صفاتهم صفة الخشوع، التي تتناسق مع مشهد أولي الألباب أمام كتاب الكون المفتوح ، ودعائهم الخاشع المنيب"[28]. ولما ذكر الله I اختصاصه بالملك العظيم، والقدرة الكاملة في الآيات الكريمات التي وردت في بداية السورة فقد أكّد في نهاية السورة اختصاصه بذلك أيضا في قوله: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)، وجاء هذا التقرير على سبيل التأكيد، وذلك للاعتناء بتحقيق مضمون الجملة.

ومن الملاحظ في الآية أن اسم (إن) تأخر، وهو (لَآيَاتٍ) وجاء نكرة، وذلك للتفخيم من حيث الكم والكيف، أي: لآيات كثيرة عظيمة لا يُقدّر قدرها. وفي هذه الآيات الكريمة تمت الصراحة بذكر السموات والأرض مرتين: مرة في بداية الآيات، ومرة في وسطها، وذلك؛ "لإبراز كمال العناية ببيان حالِهم، والإيذان بكون تفكّرهم على وجه التحقيق والتفصيل"[29]. ومن جمال ما اشتملت عليه الآيات الإيجاز بالحذف في قوله I (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وهو قوله(يقولون) قبل النداء بـ(ربنا)، وفي هذا الحذف إيحاء بأن تفكير أولي الألباب " قد أسلمهم مباشرة إلى التصديق بأنه هذا الخلق لم يكن باطلا، وإنما لحكمة... واقتحام هذا الفعل المحذوف يقلل من الإيحاء بهذه السرعة في إدارك الحقيقة، والاعتراف بها"[30]. وفي إيثار (الرب) في النداء ما لا يخفى من أن إجابة الضراعة من مقتضيات الربوبية. وهذا المطلب الذي هو الوقاية من النار قد ورد في الآية 201 من سورة البقرة أيضا، ومن الملاحظ أن كلمة (النار) في القرآن الكريم مفردة، وذلك لأنها ذات أصل واحد، ومادتها واحدة ولذا ناسبها الإفراد [31]، وقيل: "إنما أُفردت باعتبار الجنس، ولما كانت النار تعذيبا ناسب إفرادها، نظير إفراد الريح في العذاب، وهي دار حبس، والغاضب يجمع جماعة من المحبوسين في موضع واحد أنكد لعيشهم، فالنار إذن لكل مذنب، لذا لم تُجمع"[32]. ومما ورد في الآية الأخيرة هو المطابقة بين الدنيا والآخرة، فالداعي بهذه الضراعة عبّر عن طلبه الدنيوي موصولا بالأخروي، مظهرا حاجته لتلك الحسنة، ليس في الدنيا فقط، بل إنما في الآخرة أيضا، وخاصة عند الوقوف بين يدي الله I الذي بيده وحده أن يهبهم الجنة المعبر عنها في الضراعة بالحسنة، تفضلا منه ورحمة I وكرما. وفي هذا المطلب جمع الداعون بين طلبي مغفرة الذنوب، والوقاية من النار.

ومما أيضا يلفت النظر هو إظهار كلمة (النار) في قوله (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ) بعدما ذكرت في قوله (سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، وذلك لتهويل أمرها. وقد جاءت هذه الجملة مؤكدة بـ(إن) (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ)، وذلك "لإظهار اليقين بمضمونها، والإيذان بشدة الخوف"[33] فهم في هذه الضراعة يقرّرون حقيقة معينة تمكنت من قلوبهم، حيث أنهم يُثبتون لله إدخاله العبد جهنم خزي بعينه، ولتمكن هذه الحقيقة منهم فهم يؤكّدونها

تحقيقا لما يحسون به من قوتها في نفوسهم. وهذا الأسلوب وارد بكثرة من أساليب القرآن الكريم في آيات الضراعة العديدة التي ورد التأكيد فيها لإظهار اليقين بمضمون الجملة، ومحتواها.

ومن التعبيرات الجميلة في الآية نفسها هو التعبير بـ (تُدْخِلِ) بدلا من (تُعذّب) وهو المراد، وذلك لتصوير الحالة التي بها سيتم إدخالهم النار، ولبيان فظاعة هذا الأمر لما في هذا الفعل (تدخل) من معاني الدفع، فكأنهم سيُدفعون دفعا بالقوة نحو عذاب جهنم, ولما فيه من الإحساس بالخزي أمام الخلائق، أنه سيُفضح بين الناس رغم أنفه، وهذه المعاني لم تكن لتتم لولا هذا التصوير الذي يقدر على نقل الصورة المتخيلة بفظاعتها، وذلك هو الأسلوب المتبع في منهج القرآن الكريم لنقل الأحداث بالصورة الحية، وكأنها ماثلة أمام العيان يمكن مشاهدتها لكل من يقدر على استحضار الصور التخيلية. وكأن أولي الألباب الذين استنجدوا بالله I وتضرعوا طالبين منه النجاة من النار كانوا يستحضرون هذه الصورة المخزية التي يتم فيها جرّ المعذّب، ودفعه بالقوة وهو في حالة شديدة الحرج، فلا يسمع له أحد حاجته، ولا يُجيب إلى طلبه ولا يملك هو بنفسه من أمره شيئا. ولا شك أن تلك استعارة بديعة تمت باستعارة فعل (تدخل) لمعنى التعذيب.

ومن مواضع الجمال في الآية نفسها هو الإظهار أو ذكر في قوله (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) في موضع الإضمار، وذلك بأن (الظالمين) في الآية هم الذين يتم إدخالهم النار، فبدلا من أن يقول (وما لهم) وكان المراد بهم (المدْخلين) قال (الظالمين)، وذلك " لذمهم، والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم، ووضعهم الأشياءَ في غير مواضعها"[(34)]، وفي الجملة تذييل جيء به لبيان ما سيكون فيه حال الظلمة من الخلود في العذاب، وفقدان الناصر والمعين، وهذه بلا شك حالة سيئة جدا –نسأل الله I أن يحفظنا منها–، ووضع خطير لا يحتمله أي إنسان مهما كان قويا وشجاعا.

وهكذا تتوالى ابتهالات أولي الألباب، وضراعاتهم، فبعدما دعوا ربهم I في الآيتين السابقين بأن يقيهم النار، والخزي، والهلاك، بدأوا بذكر مسارعتهم إلى إجابة الداعي وهو النبي ρ، وأنهم لم يتوانوا لحظة في قبول ما كان يدعو إليه من الإيمان والتوحيد، وأخذوا مرة أخرى في التضرع إلى الله I طالبين عفوه، وغفرانه، وذلك في قوله I حكاية عنهم: (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)، وهنا أيضا افتتحوا الضراعة بالنداء المكرر بـ(ربنا)، والحقيقة أن النداء في هذه الآيات تكرر خمس مرات بـ (ربنا) وهذا "من باب الابتهال، وإعلام بما يوجب حسن الإجابة، وحسن الإثابة من احتمال المشاق في دين الله، والصبر على صعوبة تكاليفه"[(35)]، كما أنه أمر يحمل "دلالة على استقلال المطالب، وعلوّ شأنها"[(36)]. وقد أخبروا بأنهم أجابوا الداعي، وعبّروا عن القبول بالسماع (سمعنا) مجازا، فالسماع هو السبب في قبول الدعوة والإيمان بها، ففي ذلك مجاز مرسل علاقته الجزيئة. ثم أكّدوا ذلك الخبر بقولهم (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ)، والله I يعلم وهو علاّم الغيوب، والمطلع على ما في الصدور، إنما هم جاءوا بالخبر مؤكّدا؛ لأنه " لما كانت حالهم – لمعرفتهم بأنهم لا ينفكون عن تقصير وإن بالغوا في الاجتهاد، لأنه لا يستطيع أحد أن يقدّر اللهَ حق قدره – شبيهة بحال من لم يؤمن؛ اقتضى المقام التأكيد إشارة إلى

هضم أنفسهم بالاعتراف بذنوبهم، فقالوا مع علمهم بأن المخاطب عالم بكل شيء: (إننا)، فأظهروا النون إبلاغاً في التأكيد"[37]. ومن الروعة في التعبير أيضا في هذا الضراعة الجليل هو أن كلمة (الداعي) أوثرت على كلمة (الرسول)، وذلك للدلالة على كمال اعتنائه ρ بأمر الدعوة، وتبليغها إلى كافة الناس في أرجاء الأرض شرقا وغربا، ولتتناسب هذه الكلمة مع ما في فعل (سمعنا) من الاستماع بمعنى القبول من مناسبة قوية بين الكلمتين؛ لأن ذلك يدل على أنه ρ لم يُخفِ الدعوة وأمرها عن الناس، وأنهم أيضا لم يكونوا من المنكرين لهذه الدعوة التي سمعوها، وعرفوا أحقيتها، فلم يسعهم إلا قبولها، واعتناق دينها الذي كان يدعو إليه داعيها (الرسول) ρ. كما أن التعبير بفعل (ينادي)، وإيثاره على غيره من الأفعال التي في معناه كـ(يدعو) كان لحكمة عرف أبو سعود –رحمه الله– سرها، فقال: " وهذا أسلوبٌ بديعٌ يُصار إليه للمبالغة في تحقيق السماع، والإيذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم، وللتوسل إلى تفصيله، واستحضار صورته، وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبَّر عن المسموع منه بالمنادي، ثم وَصَفه بالنداء للإيمان على طريقة قولك: (سمعت متكلما يتكلم بالحكمة) لما أن التفسيرَ بعد الإبهام، والتقييدَ بعد الإطلاق أوقعُ عند النفس وأجدرُ بالقبول"[38]، فإذن قوله (ينادي للإيمان...) كان تفسيرا لما سمعوه من النداء الذي أطلقه النبي ρ للناس جميعا، وهو كان عبارة عن الإيمان بالله I، وعقيدة التوحيد المنافية لعقيدة الشرك المنتشرة آنذاك في الجزيرة العربية، كما أن التعبير نفسه كان قيدا لذلك الإطلاق الموجود في (مناديا) حيث إنه كان يدل على جميع ما يُسمع من الأقوال، والنعرات، فجاءت الجملة الفعلية (ينادي للإيمان ...) ليقيد الإطلاق السابق بأن المراد بما كان يدعو إليه هو أمر مهم يخص كل ذي لُبّ وعقل سليم. وفي هذه التعبيرات الرائعة من الجمال ما يدركه كل صاحب ذوق للغة العربية، ومنتبه لأسرارها العديدة في التراكيب القرآنية الجليلة. وذهب الزمخشري –رحمه الله– إلى أن التنكير الموجود في (مناديا) وتقييده بعد إطلاقه يشتمل على سر بليغ، فقد جيء به " تفخيما لشأن المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان"[39]. وهذا حق فلم تعرف البشرية عبر تاريخها الطويل داعيا أعظم من الرسول ρ قديما وحديثا، وهذا ما يعترف به كثير من غير المسلمين أيضا. فما أعظم عربية القرآن! وما أجمل التراكيب التي نُسجت بها مضامينها! ولا عجب في ذلك فاللغة التي تؤدي الظاهرة الصغيرة الواحدة فيها– كظاهرة التنوين هذه– كل هذا المعنى الجليل والدقيق فإنها بحق لغة عظيمة تستحق أن توصف بلغة الإعجاز في القرآن الكريم. ثم إن القرآن الكريم آثر الفعل المضارع (ينادي) على الفعل الماضي (نادى) مع أن المؤمنين لما أخبروا عن أنفسهم قالوا (سمعنا)، فكان الظاهر أن الماضي كان يناسبه الماضي، ولكن القرآن الكريم فضّل التعبير بالمضارع (ينادي) وذلك لأن الأمر مقيد بالإيمان، والدعوة إليه، تلك الدعوة التي يجب أن تكون مستمرة متجددة، فالإيمان كالنبتة التي تحتاج إلى التعهد بالرعاية والسقاية حتى يخضر ويثمر، فهو (الإيمان) متى ما أُهمل وتُرك بلا رعاية يبس وتحطم مثل النبتة، وقد اقتضى السياقُ التعبيرَ بالفعل المضارع ليدل على ضرور تكرار النداء وحدوثه باستمرار لإحياء القلوب بالإيمان، يضاف إلى ذلك ما في التعبير بالفعل المضارع (ينادي) من استحضار تلك الصورة الحية الماثلة التي كانت تتم بها الدعوة النبوية في تلك الفترة الحرجة من حياة الإسلام. وقد انتهت

هذه الآية بمطلب أساسي مهم ألا وهو الوفاة على الإيمان، واللحاق بالصالحين، وهذا المطلب نفسه قد ورد على لسان حواريي عيسى υ، وذلك فيه قوله I: (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [(40)]، وهنا عُبّر عن اللحاق بالصالحين بالشاهدين، وقد أدت الفاء في (فاكتبنا) الترتيب والتعقيب؛ لما فيها من سرعة الكتابة دونما تراخ أو تأخير؛ لأنهم آمنوا بما أنزل إليهم واتبعوا الرسول، فجزاء ذلك أن يسرع لهم في كتابتهم مع الشاهدين لسرعة استجابتهم، وهذا ترتيب طبيعي فالنفس تميل إلى استعجال الخير. ومنه أيضا قوله I: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [(41)]، ولا يخفى ما في الفعل المضارع (تَفِيضُ) من التجدد، والتدفق المستمر الذي يدل على الغزارة المنبئة عن القوة الإيمانية التي تجيش بها صدورهم. وهذه هي الدلالات والإيحاءات المعنية التي ترمي بظلالها على المعاني المقصودة في التراكيب القرآنية الرائعة، ومن ذلك أيضا ما ورد في دعاء امرأة فرعون (آسية) (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [(42)] من استخدام كلمة (نَجِّنِي) وتكرارها إياها، وإيثارها على غيرها لما فيها من الدلالة على الخلاص العاجل السريع الذي يناسب ضعفها كأنثى لا تقدر على مواجهة هؤلاء الطغاة المتجبرين الذين يرأسهم زوجها فرعون الذي كذّب وعصى، وتجبر وطغى فصار كبير عصابة الجرائم الفظيعة التي ترتكب بحقوق الشعب المظلوم الذي لا يملك من أمره شيئا. كما أن الآية تحتوي على لفتة بلاغية جميلة ينطوي عليها الجمع بين تعبيري (عِنْدَكَ) و(الْجَنَّةِ)، وذلك أنها "طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه، ثم بَيَّنت مكان القرب بقولها: { فِي الْجَنَّةِ }، أو أرادتْ ارتفاع الدرجة في الجنة، وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش، وهي جنات المأوى، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: {عِندَكَ}"[(43)] .

ومما يلفت نظر القارئ في هذه الآيات الكريمة لضراعات المؤمنين هو تكرار النداء بـ(ربنا)، وذلك من أجل الغرض البلاغي المهم، ألا وهو الاسترحام، والاستعطاف، والتضرع، وإظهار كمال الخضوع، والاعتراف بربوبية الله I مع الإيمان به. كما يلفت نظر القارئ حسن اختيار القرآن الكريم للكلمات بدقة عالية، فمما طلب أولوا الألباب في المغفرة كان عبارة عن الذنوب والسيئات في قولهم (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا)، وليس ذلك من قبيل المترادفات كما قد يظن البعض، وإنما لكل منهما معنى خاص تختلف به عن الأخرى، وقد تعددت أقوال المفسرين في معانيهما، فقيل: إن الذنوب هي المعاصي الكبيرة، وأما السيئات فهي المعاصي الصغيرة، وقد استخدم (اغفر) مع الذنوب، و(كفّر) مع السيئات، وتلك هي الدقيقة التي سار عليها القرآن الكريم كله، والجمع بين غفران الذنوب، وتكفير السيئات كان من باب التأكيد والمبالغة والإلحاح في الضراعة، حتى يجد هذا الطلب المتصاعد إلى أبواب السماء هناك قبولا وإجابة [(44)].

ويختم أولوا الألباب ضراعاتهم باستنجاز وعد الله I، وثوابه، وأن لا يخزيهم يوم القيامة بأي نوع من أنواع الخزي المتعددة (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)، وفي ذلك يقول سيد قطب –رحمه الله– إن هذا الابتهال منهم: " يدل على شدة الخوف من هذا الخزي، وشدة تذكره،

واستحضاره في مطلع الضراعة، وفي ختامه، مما يَشي بحساسية هذه القلوب، ورِقّتها، وشفافيتها، وتقواها، وحيائها من الله"[45]. فهم من شدة الخوف على الآخرة، وأمر مصيرهم فيها لا ينفكون عن الضراعة، والابتهال حتى وإن تكررت عندهم بعض المعاني المتقاربة في طلب النجاة، والإعفاء عنها، فذلك أمر لطالما يحدث لمن كان عنده شعور كشعورهم بالخوف الشديد، والخشية الباعثة على ترداد التراكيب التي قد تدل على المطالب المتقاربة، وعلى الأهداف المتشابهة. ومن بلاغة هذه الآيات أيضا الإيجاز بالحذف في قوله I (عَلَى رُسُلِكَ)، والتقدير: على ألسنة رسلك، وقيل: تقديره: على تصديق رسلك، وقيل: ما وعدتنا منزلا على رسلك، أو محمولا على رسلك؛ لأن الرسل يحملون ذلك، والموعود هو الثواب، وقيل: النصرة على الكفار[46]، وقد استخدم الاسم الموصول (ما) للدلالة على الشمول الذي يشمل كل ما وعد الله I عباده من الهداية، المغفرة، ودخول الجنة، والنجاة من النار، والإعفاء من الخزي، وغير ذلك من الأمور العديدة التي وعدها للمؤمنين، ودل عليه الاسم الموصول الوارد في الآية [47].

ومن الملاحظ أيضا أن الله I آثر استخدام كلمة (رسلك) جمعا، مع أن المنادي المذكور في الآية قبلها هو الرسول ρ فقط، وذلك لأن" دعوته ρ –لا سيما في باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع– منطوية على دعوة الكل، فتصديقه تصديقٌ لهم –عليهم السلام–، كيف لا؟ وقد أخذ منهم الميثاق بالإيمان به ρ، وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعودٌ على ألسنة الكل، فإيثار الجمع لإظهار كمال الثقة بإنجاز الموجود بناء على كثرة الشهود"[48]، وهذا أيضا مظهر رائع من مظاهر التعبير في عربية القرآن الكريم حيث يطلق تعبيرات وينظر إلى مراميها البعيدة في التعبير، ولذا لم تكن عربيته عربية البشر الذين –لما وُجّه لهم التحدي– عجزوا عن أن يأتوا بحديث مثل القرآن الكريم، وذلك؛ لأنهم كانوا يُدركون بعض ما للقرآن من الميزات السامية التي ترجع إلى الأساليب الرائعة، والتعبيرات الراقية.

وفي آخر هذه الرحلة الدعائية تأتي ثمرة تلك الضراعة الخاشعة، والابتهال المتذلل في قوله I : (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) حيث يخبرنا الله I أن استجاب دعاء هؤلاء الداعين المتضرعين في خشوع إلى الله I، وأنه تقبل أعمالهم التي قدمتها أيديهم من الرجال والنساء، وهنا تتصدر (الفاء التعقيبية) فعل (استجاب) لتدل على أن هذه الاستجابة كانت عقب الضراعة مباشرة، وبذلك تتحقق للداعين فرحتهم، بتحقيق هدفهم الأسمى، وجاءت جملة (أني لا أضيع ...) مؤكَّدة بـ(أن)، وذلك ليطمئن الداعون من أن الله أنجز ما وعدهم من استجابة الضراعة، ومما يُلفت النظر في هذه الجملة هو الالتفات عن الغيبة إلى التكلم، ثم خطاب عباده فقد خاطب الله I عباده الصالحين المتوجهين إليه بعبادة الضراعة أن دعاءكم لن يضيع، وذلك تشريفا لهم، فغير خاف على أي أحد منا أن مخاطبة الله I له شرف عظيم ليس بعده شرف، وهي مفخرة للمخاطَب يجب أن يفتخر بها مدى الدهر، ومن التعبير الجميل في الآية أيضا أنه سمّى دعاء الداعين، وابتهال المبتهلين عملا يجب أن يُجازوا عليه، وذلك لأن الضراعة عبادة في الإسلام، وهذا ما يقرره القرآن الكريم بقوله : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ) [49]، فيأمر الله عباده بالتوجه والتضرع إليه، ثم يقرّر أن المستعلين على عبادته –ولم يُذكر فيما سبق غير الضراعة– التي هي الضراعة نفسه فإن مصيرهم جهنم سيدخلونها أذلاء منكسرين، وقيل: المراد العمل المذكور في الآية هو ما قدمه هؤلاء الداعون من الأعمال الصالحة على الضراعة. وقد عُبّر بعدم الإضاعة (لا أضيع) عن معنى (عدم الإثابة)، وذلك لكمال نزاهته I عن ذلك[50].

وفي قوله I : (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) إطناب؛ لأنه يشتمل على تفصيل لما أُجمل في الآية السابقة من العمل الذي يذكر الله I بعض أنواعه على وجه التعظيم والمدح، فالمراد: فالذين هاجروا الشرك، أو الأوطان، أو القبائل والعشائر، والأسر والعوائل من أجل دين الله I، ونيل رضاه فهم يستحقون ما ذكره الله في الآية من تكفير السيئات، وإدخالهم الجنات [51]. أما قوله I (لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) ففيه إيجاز بحذف القسم، والتقدير: وعزّتي وجلالي لأكفرنّ"، كما أن المسند إليه محذوف في الأفعال المبنية (أُخرجوا وأُذوا، قُتلوا)، وذلك للدلالة على عدم المبالاة بالقائمين على هذه الأعمال، فالتعبير هنا يوحي بالسخرية، والاحتقار لأولئك الكفار المشركين الذين ألحوا الأذى بالمسلمين الأبرياء.

وفي قوله I: (وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) مجاز عقلي في (تجري... الأنهار) حيث أُسند الفعل (الجري) للأنهار التي هي أوعية المياه، فليست هي الجارية، وإنما الجاري فيها هو ماؤها، وهو من المجاز القائم على العلاقة المكانية والمحلية، وهو أبلغ وأوجز مما لو قيل في غير القرآن الكريم (تجري من تحتها مياه الأنهار)، يضاف إلى ذلك أن الجملة القرآنية قائمة على التصوير تصوير تلك الجنات التي خُلقت على أطراف الأنهار التي تجري مياهها من تحت أشجارها، وهي صورة تخيلية. والآية بمجملها تتحدث عن هؤلاء المؤمنين الذين قاسوا الشدائد والمظالم من أجل دين الله، وبسبب ذلك يذكر الله في الآية الكريمة أنه هو الذي سيجزيهم مقابل ذلك جنات يتنعمون بها، وذلك أن يكفّر عنهم سيئاتهم وخطاياهم ليصبحوا طاهرين طيبين استعدادا لدخول الجنة موضع الطيبين الطاهرين، ويؤكد من طمأنة المؤنين كل هذا الكلام بتأكيدات القسم، واللام، والنون الثقيلة الواردة كلها في جملة واحدة.

وفي قوله I (ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) يذكر الله I أن كل ما سيناله هؤلاء الطيبون من الجنات وما أُعدّ فيها من النعيم المقيم إنما هو ثواب من عند الله، وجزاء حسن يفوق بدرجات كل تلك الأعمال التي قدّموها وأرسلوها إلى الآخرة. ومن الجمال البلاغي في الآية هو التصدير أو ما يُسمى برد العجز على الصدر في علوم البلاغة، حيث تقدم (ثوابا) في الجملة ليشير إلى الفاصلة القرآنية هاهنا. وهي ظاهرة جميلة يراعيها القرآن الكريم ويعتبرها من أساليب التناسب، والتلاحم، والارتباط اللفظي والمعنوي بين الفاصلة وبين ما قبلها في الآية، وورد في قوله تعالى (حسن الثواب) تذييل جميل جرى مجرى المثل في اللغة القرآنية، وهو من صور الإطناب، جيء به لتوكيد ما قبله وتقويته. وهكذا فالآيات الكريمة السابقة اشتملت على مجموعة من الضراعات على لسان المؤمنين من أولي الألباب، وعلى مجموعة من أهم المطالب الأخروية، كطلب الوقاية من النار، وطلب مغفرة

الذنوب والسيئات، وطلب اللحاق بالصالحين، وطلب النجاة من الخزي يوم القيامة، فقد تجمعت هذه المطالب الأخروية العديدة في هذه الآيات الكريمة من آخر سورة آل عمران.

ومن المطالب الأخروية المهمة مطلب الرحمة، أو الاسترحام، وقد ورد في ثلاثة مواضع على لسان المؤمنين: أولها ما ورد على لسان الراسخين في العلم في قوله I: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) [52]، ومن مواضع الجمال في هذه الضراعة هو توكيدهم بـ(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)، وذلك لإظهار اليقين بمضمون الجملة، حيث أكدوا لله I أنهم متيقنون من أنه I يهب لعباده ما طلبوه منه حتما، وأنه لما يهب فيهب بكثرة، وقد انطوت صيغة المبالغة (الوهاب) على هذا المعنى الجميل.

والموضع الثاني هو ما ورد على لسان فتية الكهف من قوله I: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) [53]، فهم بمجرد أن دخلوا الكهف رفعوا أكف الضراعة إلى الله I يطلبون منه الرحمة، إضافة إلى أن يصلح أمرهم، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم، وهذا المعنى هو ما أداه حرف الفاء التعقيبية في (فقالوا) حيث إنه جيء به لوصل الجملة التالية بالسابقة من دون الفواصل اللغوية دلالة على أن دخول الكهف عقبه رفع الضراعة، والابتهال إلى الباري سبحانه وتعالى مباشرة. ومن جميل ما في هذه الضراعة أيضا هو ورود كلمة (رحمة) نكرة، وذلك للدلالة على التعظيم، وهذا يتفق وحالة أصحاب الكهف التي كانوا فيها، حيث كانوا يواجهون عددا من المشاكل المتنوعة، فقومهم خرجوا إثرهم يطلبونهم، والدولة بجيوشها وإداراتها العديدة تتعقبهم، فلذا طلبوا الرحمة العظيمة التي تسعهم، وتُطَمئِنُ قلوبهم المرتبكة، وتُهَدِّئ نفوسهم المضطربة. وكان التنوين كافيا للقيام بهذه الدلالة العظيمة، وهذا من أعاجيب اللغة العربية التي لا تظهر أسرارها ودقائقها إلا للمتذوقين. يضاف إلى ذلك أن كلمة (رحمة) وردت بصيغة الإفراد، وهم بحاجة إلى الرحمة العظيمة، ذلك؛ لأن الرحمة التي هم يطلبونها هي رحمة إلهية، وقليل منها كثير. ثم إن الدلالة على المعاني في اللغة العربية ليست قائمة بشكل دائم على أساس الصيغ إفرادا وجمعا، بل إنما الدلالة في العربية تتم بأكثر من وسيلة، فمثلا هذه الرحمة وإن كانت مفردة بلفظها، ولكنها عظيمة من حيث المعنى، ودلّ على ذلك التنوين في الآية، وهذا عوضها عن أن تكون جمعا تدل على الكثرة التي تم الوصول إليها بوسيلة أخرى غير وسيلة الجمع. وأخيرا ففي هذه الضراعة أوثر فعل (آتنا) على غيره من الأفعال التي في معناها كـ(أعطنا) مثلا، وذلك لأن الإيتاء أقوى دلالة من الإعطاء، وهو يدل على عظم المأتي، وفي ذلك يقول الجويني –رحمه الله–: " الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع... والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له"[54]، ليس هذا فحسب، بل إن فعل (آتنا) أسهل نطقا وأخف وقعا من فعل (أعطنا)، ثم إن الإيتاء يكاد يشبه الهبة الخالصة التي لا تحتاج إلى الطلبات والإلحاحات الكثيرة، ونظرا للمأتي الذي هو عظيم هاهنا عند أصحاب الكهف، وعظمة ذلك المأتي ناسبت استخدام فعل (آتنا) وإيثاره على غيره من الأفعال.

والموضع الثالث هو ما ورد في قوله: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [55] وفيه يأمر الله I عباده بطاعة الوالدين، والخضوع لهما، والضراعة في حقهما بأن يرحمهما الله I مقابل

ما قاما به من تربيته، وتعبا على توفير الراحة، والسكون له في الصغر. ففي هذه الآية تعليم من الله I لعباده بالضراعة للوالدين وبكلمات معينة (رَبِّ ارْحَمْهُمَا) كما أن فيها جمالا يرجع إلى إيجاز القصر الذي يظهر في معنى التربية (رَبَّيَانِي)، فالتربية اسم جامع شامل لكثير من أنواع الرعاية والاهتمام والعناية التي تتطلبها مرحلة الطفولة للإنسان، من مثل العناية بطعامه، وشرابه، ولباسه، وتهذيب أخلاقه، وتعليمه، وكل ما فيه رحمة بهذا الصغير الذي مفتقر إلى أبويه في جميع أمور حياته، فحمَل لفظ التربية كل هذه المعاني، وأظهرها في الكلام كأنها مذكورة فيه. كما أن الآية الكريمة اشتملت على التشبيه أيضا وهو في (كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)، فقد ذكر أبو حيّان أن الكاف: " من التشبيه الذي يعبر عنه النحاة بمعنى التعليل، أي: ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيرا"[(56)]، وقد دلّ هذا التشبيه على الاختصار والإيجاز، فالتربية في الصغر رحمة عظيمة بالمولود، ومع اختصاره كذلك دلّ على الشمول والتنوع، فالرحمة عامة وشاملة لها هيئات مختلفة، وصفات متعددة، وأحوال متنوعة، فالداعي بهذه الضراعة أراد اختصارها بذكر ما يماثلها، وهو رحمة الوالدين لولدهما حال الصغر.

النتائج:

لقد توصلت هذه الدراسة المتواضعة إلى أن ضراعات المؤمنين في المطالب الأخروية عبر آي القرآن الكريم حفلت بعدد من الأساليب اللغوية المؤثرة ، وعدد من نكات الجمال التعبيرية المفضلة، وقد انتهت إلى عدد من النتائج، وفيما يلي إشارة إلى بعضها:

- وظّف التعبير القرآني أسلوب الضراعة على لسان المؤمنين كوسيلة من وسائل طلب المطالب السامية في الآخرة، كالفوز بالجنة، والنجاة من النار، واللحاق بالصالحين.
- والضراعة أسلوب من الأساليب القرآنية المفضلة على ألسنة المؤمنين، يسرده القرآن الكريم بأشكال عديدة، وصور شتى، وذلك؛ للإشارة إلى أهميته البالغة في إظهار العبودية المطلقة بين يدي الرب الكريم، والإله الجليل.
- كان أسلوب التقديم والتأخير من الأساليب الرائعة التي وظّفها القرآن الكريم في آيات الضراعة على ألسنة المؤمنين في المطالب الأخروية، وذلك لدلالته القوية والمؤثرة في نفوس المتلقين.
- استفاد الاستعمال القرآني في ضراعات المؤمنين من أسلوب التنكير بتنوين بعض الأسماء الواردة فيها ، وذلك بغية التوصل إلى بعض المعاني المطلوبة، كالفخامة والعظمة.
- قام التعبير القرآني في ضراعات المؤمنين بوظيفة التناسق بين الكلمات والتلاؤم فيها خير قيام، وذلك عبر استخدام المفردات والجموع في مواطنها الأليق بها، وإيثار بعض الكلمات على أخواتها من الأسماء والأفعال الأخرى ليرتسم التعبير على الدعائم التعبيرية المنشودة.
- ما من موطن من مواطن التأثير، وأسلوب من أساليب الجمال في التعبير إلا وقد كان لضراعات المؤمنين فيها نصيب الاستخدام والتوظيف، حيث اشتملت على عديد من النكات الجمالية المؤثرة المتمثلة مرة في الإضمار والحذف، ومرة في تكرار المنادى (الرب)، ومرة ثالثة في الفاصلة القرآنية وهي من الظواهر الرائعة

التي راعاها القرآن الكريم في موضوع الضراعات، وذلك؛ لأنها وسيلة قوية من وسائل التناسب، والتلاحم، والارتباط اللفظي والمعنوي.

- وردت معظم الضراعات على ألسنة المؤمنين بحذف حرف النداء (يا)، إشارة إلى أنهم يستشعرون بقرب المنادى، وأنه سميع يسمع دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء.

- **الهوامش والحواشي:**

---

(1) غافر: 60.

(2) البقرة: 186.

(3) آل عمران: 16.

(4) آل عمران: 147.

(5) الكهف: 10.

(6) آل عمران: 8.

(7) الإسراء: 24.

(8) البقرة: 201.

(9) آل عمران: 16.

(10) آل عمران: 191.

(11) البقرة: 201.

(12) الأعراف: 156.

([13]) التحريم: 11.

([14]) غافر: 8.

([15]) آل عمران: 193.

([16]) الأعراف: 126.

([17]) آل عمران: 53.

([18]) المائدة: 83.

([19]) يوسف: 101.

([20]) الشعراء: 83.

([21]) آل عمران: 194.

([22]) الأعراف: 47.

([23]) التحريم: 8.

([24]) الحديد: 12.

([25]) تفسير ابن كثير:إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، الناشر: دار ابن حزم، 2009. 8/ 15.

([26]) آل عمران: الآيات:7-8.

([27]) آل عمران: الآيات: 190-194.

([28]) في ظلال القرآن: السيد قطب، الناشر: دار الشروق، 1423للهجرة الموافق 2003 الميلادي.

([29]) تفسير أبي السعود: أبو السعود العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى 2/ 80.

([30]) من بدائع النظم القرآني للدكتور سيد عبد الفتاح حجاب، الناشر: دار الكتب القاهرة بدون ذكر السنة : 60.

([31]) انظر: الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، الناشر: مؤسسة الرسالة، 2010، 2/ 301.

([32]) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي: الناشر: دار التراث، 2008م، 4/ 14. بتصرف

([33]) تفسير أبي السعود: 2/ 84.1

([34]) تفسير أبي السعود: 2/ 85.

([35]) الكشاف: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ضبط وتصحيح: مُحَمَّد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م. 1/ 447.

([36]) البيضاوي: وتفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، للقاضي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.، 3/ 92.

([37]) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: دار الكتاب الإسلامي، 1984م، 2/ 198.

([38]) تفسير أبي السعود: 2 /85.

([39]) الكشاف: 1/ 489.

([40]) آل عمران: 53.

([41]) المائدة: 83.

([42]) التحريم: 11

([43]) الكشاف: 4/ 559.

([44]) انظر: تفسير البيضاوي: 196/1. وفتح القدير: للشوكاني، الناشر: دار المعرفة 2013م، 1/ 517. والبحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، 2010م، 2/ 142.

([45]) في ظلال القرآن: 1/ 547.

([46]) انظر: الكشاف: 1/ 489.

([47]) انظر: روح المعاني: شهاب الدين الآلوسي: دار الكتب العلمية، 1415للهجرة، 64/20.

([48]) تفسير أبي السعود: 1/ 86.

([49]) غافر: 60.

([50]) انظر: تفسير أبي السعود: 2/ 22.

([51]) انظر: الكشاف: 1/ 490. وتفسير أبي السعود: 2/ 88.

([52]) آل عمران: 8.

([53]) الكهف: 10.

([54]) البرهان في علوم القرآن للزركشي: 4/ 85.

([55]) الإسراء: 24.

([56]) البحر المحيط: 39/7.